

ظاهرة الاعتقاد والتجارة المكية قبل الإسلام (مبدأ التكافل الاجتماعي)

المدرس رنا طعيمه حسين الصافي

الانكماش التجاري أبان القرن السادس الميلادي في مكة

إن ازدهار الأنظمة السياسية وتطورها يكون مكفولاً ، بتوفر جملة من العوامل يأتي في مقدمتها الإمكانيات الاقتصادية ، والتجارة بوصفها ركناً أساسياً لتطور الاقتصاد ، شكلت عصب حياتي بعيد الأثر داخل مكة ، وقد مرت التجارة بأدوار مختلفة ما بين المحلية والعالمية ، وأفاد الموقع الجغرافي التجار في مكة لخدمة الصالح العام ، وتنمية التجارة ، وجعل مكة ممراً تجارياً تمر عبرها مختلف السلع والبضائع وبذلك قدمت دوراً ريادياً في التجارة الحجازية ، ومهد التطور التجاري ، لنشوء تنوع ثقافي وتداخل حضاري ينضوي في إطار التزاوج مابين البداوة في شبه الجزيرة العربية ، والتمدن في معظم المناطق التي وصلها تجار مكة وتأثروا بها ، ومن هنا صنعت التجارة المكية معادلة التفاعل الاقتصادي ، ضمن مضمار حضاري إنساني ، فخلقت أجواء المدينة القائمة على أساس القوة الاقتصادية مدفوعة بالمكانة الدينية.

كان معظم تجارات العالم منذ القديم وحتى القرون الوسطى سيطرت عليها مجموعة من القوى تحكمت بإدارتها ، وتسييرها ، أولها الإمبراطورية الساسانية والبيزنطية ، وثانيهما سكان العربية الجنوبية ، حيث قام اليمانيون بنقل التجارة بين بلاد العرب والبلاد المجاورة ، وظل ذلك دأبهم على اختلاف دولهم في الأزمان التي تقدمت القرن السادس الميلادي ، فاستأثروا بتجارة شبه الجزيرة ، يحملون التمر والزبيب والأدم والبخور ، والحجارة الكريمة ، والمنسوجات من مواطنها ثم يستبدلون بها بضائع أخرى⁽¹⁾.

لم يكن الحجاز بمنأى عن التطورات السياسية والتجارية التي تمر بها شبه الجزيرة ، بل كان مواكب لها حيث شهد القرن الخامس الميلادي بروز مكة على يدي قصي بن كلاب (لما غلب قصي على مكة ونفي خزاعة ، قسمها على قريش فأخذ لنفسه وجه الكعبة فصاعداً ، ... ، وأعطى بني عدي أسفل الثنية وأعطى بني مخزوم أجيادين وبني جمع المسفلة وبني سهم الثنية ، فيما بين

حق جمع وبني سهم ، ... ، فلم تزل قريش تحوز رباها وتبيعها ، حتى جاء الله بالإسلام ، وهم على سكتهم ومنازلهم ، فلما دخل رسول الله (ﷺ) مكة عام الفتح خطب الناس يومئذ فأقرهم على رباهم ومنازلهم ، التي كانوا عليها ولم يخرج أحد من ربه ولا من منزله⁽²⁾.

وصول مكة إلى مصاف التمدن يقصد به هنا ، تسليط الضوء على ظاهرة اجتماعية تنشأ في كل حضارة ، في إطار التطور النموذجي لطموحات الناس فهي تتحقق من الاستغلال الأمثل للممكنات البيئية والفنية ، التي تتبع العصر والإقليم ، وينتج عنها حدوث علاقة اجتماعية ، متبادلة بين صفات التمدن الحضري وبين الحالات الاجتماعية والدينية ، والاقتصادية التي تعود على مؤسسيها⁽³⁾.

تدرجت التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مكة تباعاً ، منذ القرن الخامس الميلادي ، فنشأت فيها حياة اقتصادية عمادها التجارة ، ولكنها في الوقت نفسه أخذت منحى المحلية ، بتأثير العامل الديني التحمس⁽⁴⁾.

يحتوي التحمس الذي ابتدأ عند قريش على جملة من التعاليم التطبيقية ، أي إجراءات يلتزم بها الاحمسي (وكانوا لا يخرجون من الحرم ، ولا يققون مع الناس بعرفات ، ويقولون نحن آل الله لا نخرج من حرمه⁽⁵⁾ ، وكان الرجل من الغرباء إذا قدم مكة لا يطوف في الثوب الذي قارف فيه الذنب ، فأن أصاب مثل ثياب الحمس طاف فيه ، وأن لم يصب طاف الرجل عرياناً والمرأة تطوف بالليل عريانة ، وكان الحمس لا يسلمون السمن⁽⁶⁾ ، ولا يأقطن الاقط⁽⁷⁾ ولا يأكلون اللحم أيام المواسم ، ولا يدخلون البيوت من أبوابها⁽⁸⁾).

وعُرفت قبيلة قريش بالتحمس واشتهرت به في شبه الجزيرة العربية ، ويبدو ان هناك مجموعة من القبائل العربية قد اجتذبتها هذه الطقوس الدينية ، ومن جملة هذه القبائل (كنانة ، وخزاعة ، والالوس والخزرج ، وجشم ، وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وازد شنوءة⁽⁹⁾ ، وجذم⁽¹⁰⁾ ، وزبيد ، وبنو ذكوان من بني سليم ، وعمرو اللات ، وثقيف ، وغطفان ، وعدوان ، وعلاق ، وقضاعة⁽¹¹⁾).

وهناك صنف آخر من العرب لم يدخلهم نظام التحمس ، ولذا عرفوا باسم الحلة ، وهم الذين يطوفون أول حجهم إلى الكعبة ، الرجل أو المرأة عراة ولا يحرمون الصيد في النسك ويلبسون الثياب ، ويسألون السمن ، ولا يدخلون من باب بيت ، وكانوا يدهنون ويتطيبون ويأكلون اللحم ، وقبائل الحل (تميم ، وضبة ، ومزينة ، والرياب ، وعكل ، وثور ، وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان

، وحضرموت ، وعك ، وقبائل من الازد⁽¹²⁾.

أثر التحمس على الجانب الاقتصادي في مكة ولاسيما التجارة ، (فقرش لا تتاجر إلا مع ما ورد عليها مكة في في المواسم وبذي المجاز⁽¹³⁾ ، وسوق عكاظ⁽¹⁴⁾ ، وفي الأشهر الحرم لا تبرح دارها ولا تجاوز حرمها للتحمس في دينهم ، والحب لحرمهم ، وألف بينهم ، ولقيامهم بجميع من دخل مكة بما يصلحهم⁽¹⁵⁾).

وهناك رواية عن طبيعة التعاملات التجارية ، ذات السمة المحلية يذكرها القالي فيقول : (كانت قرش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدوا مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ويبيعونها على من حولهم من العرب)⁽¹⁶⁾.

لعل هذا التشدد في الدين من قرش ، ومحدودية تجارتهم كان يخفي وراءه هدفاً يتلخص في إشعار العرب بالحاجة إلى قرش والعمل على الربط بين ظاهرة التحمس الدينية ، ورغبة قرش الدنيوية في تصريف بضائعهم ، فليس من البعيد ان يكون اشتراطهم ، وأعني تحريمهم على الناس أكل ما جاءوا به من طعام ، من الحل إلى الحرم ، وطوافهم إلا في ثياب أحمر ، لسبب آخر غير التحريم والتحليل ألا وهو رواج ما عندهم في مواسم الحج ، من مأكّل وملبس ، فضلاً عن الأسباب الصحية والتشجيع على النظافة⁽¹⁷⁾.

وبعيداً عن التجارة نجد ان التحمس عمل على تهذيب وتشذيب ، بعض العادات السلبية المتجذرة الأصول في نفوس البدو الذين يسيرون في طور التحضر ومنهم أهل مكة (وكانوا ديانين ولذلك تركوا الغزو ولما فيه من الغصب والغشم ، واستحلال الأموال والفروج ، ومن العجب انهم مع تركهم الغزو كانوا أعز وأمثل ... مع الرأي الأصيل والبصيرة النافذة)⁽¹⁸⁾.

على الرغم من تقييد التحمس للتوجه الاجتماعي ، والنشاط التجاري في مكة ، إلا ان تجار مكة حاولوا توظيف خبراتهم للخروج بتجارتهم ، من نطاق المحلية إلى العالمية ولاسيما المناطق المحيطة بالمدن الحجازية ، ومن ثم الأبعد منها بيد ان هذا التوجه كان محفوفاً بالكثير من المخاطر والأزمات ، من ناحية الإعداد والتهيئة وانتهاءً بالمسيرة ، فقد كانت القوافل تجهز بصورة أحادية أي فردية ، من بعض التجار الموسرين ، وفي هذا مخاطرة كبيرة فالتجار معرضون لخسارة رؤوس أموالهم عند هجوم قطاع الطرق أو القبائل المعادية⁽¹⁹⁾.

وهذا ما تشير له الرواية (فان ذؤبان وصعاليك الأحياء ، وأصحاب الغارات وطلاب الطوائف كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لاسيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرم

قدراً) ، وأفردت العرب هذه الفئات عن غيرها بأسماء أطلقوها عليهم مثل المحليين ، فهؤلاء الأقوام كانوا يستحلون المظالم ولا يقيمون الأشهر الحرام ، ولا تحريم وقوع الظلم والعدوان فيها ، فإذا حضروا الأسواق في مكة أو غيرها يسلبون الناس حقوقهم. وهم قبائل من بني اسد ، وطى ، وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وقوم من بني عامر بن صعصعة⁽²⁰⁾ ، وفي المقابل وجد في العرب من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء فسموا الذادة المحرمون ، فكانوا من بني عمرو وبني تيم ، وبني حنظلة بن زيد ، وقوم من هذيل ، وقوم من بني شيبان ، وقوم من بني كلب بن وبرة⁽²¹⁾.

ظاهرة الاعتقاد بين السلبية والمعالجة :

إن قساوة مناخ مكة ضغط سلباً على حياة سكانها وجعلها صعبة الاحتمال ، حيث الرياح تقتل والذباب غاية الكثرة ، فضلاً عن قلة الثمار ويكون بالحرم حر عظيم ، وتتلصص ذلك في رواية عن النبي (ﷺ) ، حيث قال : (من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه النار ، ... ويذكر بنحو ذلك ، تباعدت منه جهنم مائة عام وتقربت منه الجنة مسيرة مائة عام)⁽²²⁾. أما المياه في مكة فقد امتازت بملوحتها وندرتها ، ولذلك أطلق على مكة اسم ناسه⁽²³⁾ ، وهذا ما دفع سكانها لجلب الماء من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها لؤي بن غالب خارج الحرم تدعى اليسيرة ، ومن بئر حفرها لؤي بن كعب تدعى الروى وهي مما يلي عرفة ، ثم حفر كلاب بن مرة خم ورم والجفر بظاهر مكة⁽²⁴⁾ ثم ان قصي بن كلاب حفر بئر سماها العجول⁽²⁵⁾ :

نروى على العجول ثم ننطلق قبل صدور الحاج من كل أفق
ان قصياً قد وفى وقد صدق بالشـبع ورى مغتـبـق

ولا يعني هذا عدم وجود المياه بصورة قطعية في مكة ، فهناك مواسم الربيع والخريف التي تهطل فيها الأمطار وبكميات غزيرة ومفاجئة⁽²⁶⁾ ، مما يؤدي إلى تعرض ارض مكة إلى حالات من انجراف التربة نتيجة لقلة غطاءها النباتي محدثة سيولاً مخرية ، وكان أولها في زمن خزاعة ، وان ذلك السيل هجم على مكة ، فدخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة ورمى بشجر الوادي أسفل مكة وجاء برجل وامرأة كانا بأعلى مكة ، يقال لها فأره⁽²⁷⁾ واستمرت هذه السيول المكية في العصر الجاهلي ، فقد اشتهرت مكة بسيولها العوارم المتواترة ، فجاء سيل كسا ما بين الجبلين في مكة وكبد أهلها خسائر فادحة ، وأكثر هذه السيول وطأة زمن قبيلة قريش الذي دخل الكعبة وصدع جدرانها ، وأخافهم ففرغت من ذلك قريش فزعاً شديداً ، وهابوا هدمها وإعادة بناءها ، يضاف إلى

ذلك انتشار الأمراض لاسيما العمى بين الأهالي نتيجة للظروف الصحية ، ومن أشهرهم عبد المطلب بن هاشم ، والعباس بن عبد المطلب وعبد الله بن عباس ، وغيرهم⁽²⁸⁾.

أما في الإسلام كانت هنالك مجموعة من السيول ، أبرزها سيل عرف بسيل الجحاف أو الجراف ، سنة ثمانين في عهد عبد الملك بن مروان ، وفي سنة اثنتين ومائتين في عهد المأمون ، دخل المسجد الحرام سيل ابن حنظلة وأحاط بالكعبة ، وكان دون الحجر الأسود بذراع ورفع المقام عن مكانه ، وهدم دوراً من دور الناس ، وذهب بناس كثر ، وأصاب الناس بعده أمراض شديدة من وباء وموت فاش⁽²⁹⁾.

هيات العوامل المناخية الصعبة ، مع وجود تربة غير صالحة للزراعة داخل مكة الأجواء الملائمة لمرورها بسنوات القحط والجذب⁽³⁰⁾ والتي تسمى بالسنين العجاف⁽³¹⁾.

تطالعنا المصادر التاريخية برواية ترويهما رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف ، عن هذه السنين ، فتقول : (تتابع على قريش سنين ذهبن بالأموال وأشفقن على الأنفس ، قالت فسمعت قائلاً يقول في المنام : يا معشر قريش ان هذا النبي المبعوث منكم ، وهذا أبان خروجه وبه يأتيكم الحيا والخصب ، فانظروا رجلاً من أوسطكم ، نسباً طوالاً عظاماً ، أبيض مقرون الحاجبين اهدب الاشفار ، جعد ، سهل الخدين ، رقيق العرنين ، فليخرج هو وجميع ولده ، وليخرج منكم من كل بطن رجل ، فتطهروا وتطيبوا ثم استلموا الركن ، ثم ارقوا رأس أبي قبيس ، ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقي وتؤمنون فإنكم ستسقون ، فأصبحت فقست رؤياها عليهم ، فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب ، فاجتمعوا إليه وخرج من كل بطن منهم رجل ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم علوا على أبي قبيس ومعهم النبي (ﷺ) وهو غلام ، فتقدم عبد المطلب وقال : لا هم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك ، وإماؤك وبنات إمائك ، وقد نزل بنا ما ترى ، وتتابعت علينا هذه السنوات فذهبت بالظلف⁽³²⁾ ، والخف⁽³³⁾ ، واشفت⁽³⁴⁾ على الأنفس فأذهب عنا الجذب واتنا بالحيا والخصب ! فما برحوا حتى سالت الأودية ، وبرسول الله (ﷺ) سقوا⁽³⁵⁾.

وقد أشار القرآن الكريم لهذه السنوات الصعبة التي تنعدم فيها مقومات الحياة المستقرة في قوله تعالى : (ثُ ثُ ثُ ثُ ثُ) ⁽³⁶⁾. تورّد كتب التفسير روايات توضح مدلولات هذه الآية ، وتبين حالة مكة المتردية ، ومرورهم بسنوات من القحط والجوع ، حتى انهم أكلوا الجيف والعظام⁽³⁷⁾.

واجهت قبيلة قريش هذه المشاكل مجتمعة ، بكونها زعيمة مكة والماسكة بزمام الأمور فيها ، ووصف دورها بالإنساني في معالجة الأزمات الاجتماعية ذات الطابع الجغرافي ، فهذا ليس بالأمر

البعيد عن رجالات قريش الذين عرفوا بكرمهم حيث (قروا الأضياف ووصلوا الأرحام وقاموا بنوائب زوار البيت ، فكان أحدهم يحبس الحيسة⁽³⁸⁾ ، في الانطاع⁽³⁹⁾ فيأكل منها القائم والقاعد والراجل والراكب واطعموا بدل الحيس الفلودج⁽⁴⁰⁾)⁽⁴¹⁾.

إن سوء المناخ وتراكماته السلبية على مختلف الأصعدة ، انسحب بدوره على مواسم الحج ، والتي تمثل المنفذ الوحيد لمكة وصلتها بالعالم الخارجي ، فهو موسم ديني وتجاري في آن واحد ، فهدد وظيفة الرفاة⁽⁴²⁾ ، حيث أخذت قبيلة قريش وفي مقدمتها هاشم بن عبد مناف ، على عاتقها النهوض بأعبائها ، وإكرام الحجاج والاعتناء بهم ، (وكان هاشماً موسراً ، فكان فيما يزعمون - إذا حضر الحج قام في قريش فقال : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وانه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته ، وهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً ، أيامهم هذه ، التي لابد لهم من الإقامة بها ، ... ، فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم كل امرئ بقدر ما عنده ، غلب به للحجاج طعام حتى يصدروا منها)⁽⁴³⁾.

غلب على قبيلة قريش الطابع القدسي في شبه الجزيرة ، لذلك نظروا إلى مسألة الاعتناء بالحجاج وتوفير الطعام من الأمور التي تحفظ هوية أهل مكة ، حتى على الرغم من حالة القحط وضنك العيش وبذكر ، (ان هاشماً كان يستعين على طعام الحاج بقريش ، فيرفدونه بأموالهم ، ويعينونه ، ثم جاءت أزمة شديدة فكره ان يكلف قريشاً أمر الرفاة ، فاحتمل إلى الشام بجميع ماله واشترى به أجمع كعكاً ، ودقيقاً ثم أتى الموسم ، فهشم ذلك الكعك كله هشماً ، ودقه دقاً ، ثم صنع للحجاج طعاماً شبه الثريد ، فبذلك سمي هاشماً ، لان الكعك اليابس لا يثرد ، وإنما يهشم هشماً)⁽⁴⁴⁾ ولذلك قيل (كان هاشماً مصدر المهاشمة)⁽⁴⁵⁾.

وقد تغنى الشعراء بهذه الحادثة التي تبين كرم قبيلة قريش ولاسيما هاشم بن عبد مناف ، ففي ذلك يقول ابن الزبير السهمي⁽⁴⁶⁾ :

كانت قريش روضة فتفلقت	فالمح خالصه لعبد مناف
الرأيثون وليس يوجد رأيش	والقائلون هلم للأضياف
عمرو العلي هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مسنون عجاف

ويمدح الشاعر حسان بن ثابت قصي بن كلاب وبنيه لانهم كانوا مصدر الكرم والتراحم داخل مكة فيقول⁽⁴⁷⁾ :

فلا تفخر فإن بني قصي هُم الرأس المُقَدَّم ، والسنام
وأهل الصيِّت والسورات قدماً مُقدَّمها ، إذا نُسبَ الكرام

وعلى ما يبدو ان مشكلة الفقر والقحط لم تكن هي المشكلة الوحيدة التي استشرت داخل المجتمع المكي ، وإنما هناك ظاهرة سلبية عُدت جزءاً من الفقر تغلغت في الهرم الطبقي لمكة ، وإطار البنية الاجتماعية فعلمت على تحجيم هذا المجتمع ، وخسارة أعداد من أفرادها ، وعرفت هذه الظاهرة بالاعتقاد⁽⁴⁸⁾ وتشير المصادر التاريخية لهذه الظاهرة وكيفية فتقول :

(إن قريشاً إذا أصابت واحداً منهم مخمصة ، جرى هو وعياله إلى موضع معروف فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا حتى كان عمرو بن عبد مناف ، وكان سيداً في زمانه ، وله ابن يقال له أسد وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ، ويلعب معه ، فشكا إليه الضر والمجاعة ، فقال له نحن غداً نعتقد ، ... ، ذهابهم إلى ذلك الخباء ، وموتهم واحد بعد واحد ، فدخل أسد على أمه يبكي ، وذكر ما قاله تربة ، فأرسلت معه أم أسد إلى أولئك شحم ودقيق فعاشوا به أياماً ، ثم تربة أتاه أيضاً فقال له نحن غداً نعتقد ، فدخل أسد على أبيه يبكي وخبره خبر تربة)⁽⁴⁹⁾.

أيقن سادة قريش وفي مقدمتهم هاشم بن عبد مناف ، ان التحول الاقتصادي في مكة والانفتاح التجاري هي الطريقة المثلى للخروج من مشكلة الفقر ولاسيما ظاهرة الاعتقاد ، إذا ما علمنا ان هناك جملة عوامل خارجية مهدت لذلك ، ففي الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي ، وربما قبل ذلك بفترة بدأت تلوح في الأفق بوادر الصراعات بين الكيانات السياسية آنذاك ، والتي كانت تحتكر المتاجرة العالمية ، وتجوب أجزاء واسعة في شبه الجزيرة العربية ، ومناطق أخرى في عمليات نقل البضائع والسلع ، فالسيادة الرومية والحبشية على البحر الأحمر بدأت بالتراجع التدريجي ، لانشغالها بالصراع ضد الدولة الفارسية⁽⁵⁰⁾.

ويبدو ان طريق البحر الأحمر فقد الأمن نتيجة لتعرضه لهجمات القراصنة وغاراتهم ، فضلاً عن صعوبة الملاحة لوجود الشعب المرجانية وخلو شواطئه من المرافئ الصالحة لإيواء السفن ، كما ان الطريق البري الشمالي الذي يمر بخليج العرب ثم طريق الشام قد أغلق نتيجة للحروب المستمرة بين دولتي فارس وبيزنطة⁽⁵¹⁾.

أما هيمنة تجار اليمن على المضاربات التجارية بدأت هي الأخرى تتعرض إلى ضعف وتدهور ، فلا شك ان الوضع السيء الذي طرأ على اليمنيين بدخول الحبش ، وتردي الأوضاع السياسية فيها ، والاضطرابات المستمرة التي وقعت بتصادم الوطنيين والغزاة الأحباش ، أدى إلى

انحسار كل نفوذ عسكري وسياسي وتجاري لحكومات اليمن في الحجاز أو على بعض القبائل المجاورة لها⁽⁵²⁾.

انتفعت مكة من هذه الظروف لتطوير تجارتها والخروج من نطاق المحلية إلى آفاق أرحب ، لاسيما ان موقعها الاستراتيجي ساعدها كثيراً ، لانه يمثل حلقة وصل بين المدن الحجازية من ناحية ، والطريق البري من ناحية أخرى ، مما جعلها بعيدة عن حالة التصارع الدولي آنذاك⁽⁵³⁾ ، ويبدو ان هاشم بن عبد مناف وظف هذه الممكّنات لخدمة الصالح العام لمكة ، والشرع في الخطوات الأولى لتحقيق التعاون والانفتاح التجاري ، وقد مهد لذلك أثناء سفراته المتكررة بصورة فردية ، فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام ، وتورد المصادر التاريخية رواية حول إحدى سفرات هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، وأفعاله الكريمة التي تعكس كرم وشهامة سادة قريش أصحاب بيت الله الحرام وسدنته فنقول :

(نزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة⁽⁵⁴⁾ ثريد ويجمع من حوله فيأكلون ، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر ف قيل له : هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ، ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم ، وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف⁽⁵⁵⁾ ثم تأتد⁽⁵⁶⁾ بالخبز فدعاه به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له :

أيها الملك قومي تجار العرب ، فان رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف⁽⁵⁷⁾ من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ! فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم⁽⁵⁸⁾.

عرفت هذه العهود باسم الإيلاف⁽⁵⁹⁾ ، وسعى هاشم بن عبد مناف لتوسيع نطاقه الأمني بإشراك مختلف القبائل فيه ، أشرك في تجارته القبائل من العرب ومن ملوك اليمن نحو العباهلة ، واليكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح ، وساق لهم إبلًا من إبله فكفاهم مؤنة الاسفار ، على ان يكفوه مؤنة الأعداء في طريقه ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين ، وكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً ، فأخصبت قريش بذلك وحملت معه أموالها ، وأتاها الخير من البلاد السافلة والعالية ، وحسنت حالها وطاب معاشها⁽⁶⁰⁾.

إن هذه المعاهدات نقلت مكة من طور إلى آخر ، حيث تخلصوا من هيمنة الأعاجم وغيرهم على التجارة ، وأصبحوا يمارسون التجارة الخارجية بأنفسهم ، ويمكن ان نعد هذا تطوراً اقتصادياً ،

كان لابد ان يحدث تغييراً في الجانب الاجتماعي ولاسيما ظاهرة الاعتقاد ، فالإصلاحات الداخلية للأوضاع المتأزمة ، هي الهدف الأول الذي يكمن وراء انتعاش الاقتصاد المكي ، لذلك وعلى إثر رجوع هاشم من الشام (قام خطيباً في قریش فقال : انكم أحدثتم حدثاً ثقلون فيه وتكثر العرب ، وتذلون وتعز العرب ، وانتم أهل حرم الله جل وأعز وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتقاد يأتي عليكم فقالوا نحن لك تبع ، فليس عليك منا خلاف ، قال ابتدعوا بهذا الرجل يعني أبا ترب اسد فأغنوه عن الاعتقاد ، ففعلوا ثم انه نحر البدن وذبح الكباش والمعز ، ... ، ثم جمع كل بني أب على رحلتين في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام للتجارة ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قریش ، وقال رسول الله (ﷺ) ، (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع بصنع هاشم وآمنهم من خوف ان تكثر العرب ويقولوا)⁽⁶¹⁾ ونجد حضوراً للشعراء الذين تغنوا بهذه الأحداث ومنهم الشاعر الزبيري السهمي⁽⁶²⁾:

قل للذين طلب الساحة والندی	هلا مررت بال عبد مناف
هل مررت بهم تريد قراهم	منعوك من ضر ومن اعتقاد
والخالطين فقيرهم بغنيهم	حتى يكون فقيرهم كالکافي

وهذا ما يبدو واضحاً في المجتمع البابلي ، والمجتمع الكرتي القديم ، فكل طبقة قائمة بذاتها وكل شخص يتعلم مهنة أبيه ، وجاءت الطبقات مقسمة تقسيماً هرمياً ، تأتي في مقدمتها طبقة الاناكس (Anax) النبلاء وأعضاء السلالة الحاكمة ، والتي تقابل طبقة الأحرار في قانون حمورابي ، ثم الواكنياس (Wagetas) ، وهم قواد الحرب ، ثم طبقة التيليساي (الإقطاعيين) ثم الهيريفاس (Hereves) ، الكهنة ثم طبقة الداميواركوري العمال والفلاحون والأحرار والصناع) ، التي تقابل طبقة المتكفيوم في قانون حمورابي ، وأخيراً العبيد (الدولوي) الذين أتوا في الحضيض اجتماعياً عند كل المجتمعات⁽⁶³⁾ ونجد ان الفوارق الطبقيّة كانت حاضرة في المجتمع الإيراني القديم ، فنلاحظ ان الإمبراطور اردشير بن بابك 226م ، قسم المجتمع الإيراني داخل الإمبراطورية الساسانية إلى أربع فئات ، ويورد الجاحظ رواية حول هذه التقسيمات فيقول : (الأساورة من أبناء الملوك ، والقسم الثاني النساك وسدنة بيوت النيران ، والقسم الثالث الأطباء والكتاب والمنجمون ، والقسم الرابع الزراع والمهان وأضرابهم ، وكان اردشير يقول : ((ماشي أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها ، حتى يرفع الوضيع إلى مرتبة الشريف ، ويحط الشريف إلى مرتبة

الوضع))⁽⁶⁴⁾.

نتائج البحث :

1- إن وقوع مكة في شبكة من المواصلات المهمة جعل لها دوراً بارزاً في عملية التناغم

الثقافي والسياسي والتجاري ، وبالتالي عكس تمظهرات متنوعة لطبيعة الحياة التي كانوا يعيشونها.

2-عانى المجتمع المكي حاله كباقي المجتمعات من اختلاف المستوى الطبقي ، وخلق هوة شاسعة بينها مما عمل على إحباط الطبقة الفقيرة والتجائها إلى ما يسمى بـ(الاعتقاد) ، التي كان العلاج الناجع لها عهد الايلاف.

هوامش البحث

- 1-الافغاني ، سعيد ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، (دار الآفاق العربية : لام ، 1993) ، ص15-20.

- 2- ابن هشام : محمد بن عبد الملك (ت218هـ) ، السيرة النبوية ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها : مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، د.ت) 161/1 ؛ الفاكهي : محمد بن أسحاق بن العباس (ت275هـ) ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، تحقيق : عبد الملك عبد الله دهيش ، (ط2 ، دار خضر : بيروت ، 1414هـ) 261-260/3 ؛ المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق وتعليق : سعيد محمد اللحام ، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 2000) 63/2 ؛ كحالة ، محمد رضا ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، (ط8 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 1997) 948/3 .
- 3- وينهايم ، لينو ، بلاد ما بين النهرين ، ترجمة : سعدي قيصي عبد الرزاق ، (دار الحرية للطباعة : بغداد ، 1981) ص152 .
- 4- الازرقى ، أخبار مكة ، 140/1-141 ؛ المقدسي : مطهر بن طاهر (ت355هـ) ، البدء والتاريخ ، (دار صادر : بيروت ، 1903) 32/4-33 .
- 5- قریش لنهم كانوا يتشددون في دينهم ، وشجاعتهم فهم لا يطاقون ، والاحمى الورع من الرجال ، الذي يتشدد في دينه ، والاحمى الشديد الصلب في الدين والقتال ، وقال بعضهم الحمسة الحرمه ، وإنما سموا حمساً لترولهم بالحرم ، ويقال عام احمس إذا كان شديداً (ابن زكريا : جمال الدين احمد بن فارس (ت395هـ) ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، (دار الجيل : بيروت ، 1999) 104/2 ؛ ابن منظور : جمال الدين بن محمد بن مكرم الانصاري (ت711هـ) ، لسان العرب ، (دار صادر : بيروت ، د.ت) 57/6-58 (مادة حمس)).
- 6- وذكر النبي (ﷺ) هذه التسمية عندما بعث عتاب بن اسيد القرشي (رض) والياً على مكة وقال له : (هل تدري إلى من أبعثك إلى أهل الله) ، وقالت قریش وأهل مكة : نحن أهل الله وبنو إبراهيم خليل الله وولادة البيت الحرام ، وسكان حرمة ، وقبلة العرب وموضع الحج الأكبر يؤتون من كل أوب بعيد ، وفج عميق ، فترد عليهم الأخلاق والعقول والآداب والألسنة ، واللغات والعادات والصور والتمائيل ، فيشاهدون ما لم تشاهده قبيلة ، وليس كمن شاهد الجميع كمن شاهد البعض ، وتفردوا بإيلاف والوفادة والرفادة والسقاية. (الازرقى: أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت250هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: علي عمر ، (مكتبة الثقافة الدينية : القاهرة ، 2004) 140/1 ؛ الفاكهي ، أخبار مكة ، 64/3 ؛ الثعالبي : أبي منصور عبد الملك بن إسماعيل (ت429هـ) ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، (دار المعارف : القاهرة ، د.ت) 11/1).
- 7- سره الزيد والزبد سلاء اللبن ، وهو للبقر وقد يكون للمعزى ، والتسمن التوسع في الأكل ، ويقال (وأرض سمينه) (تربة أي جيدة التربة) (ابن منظور ، لسان العرب ، 219/13 ؛ الزبيدي : أبو الفيض محمد بن محمد مرتضى (ت1205هـ) ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ،

(دار الهداية : لام ، د.ت) 217/35 (مادة سمن)).

8- أقطون بفتح فكسر كأنها جمع أقط ، وأقطوني : أطعموني ، والأقط لبن مجفف يطبخ ، ويقال تلاحموا في مأقط حرب ، وتقول فلان من عملة الأقط لا من حملة المأقط. الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت538هـ) ، أساس البلاغة ، (دار الفكر : لام ، 1979) 19/1 ؛ الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت721هـ) ، مختار الصحاح ، (مكتبة لبنان ناشرون : بيروت ، 1995) 8/1 (مادة أقط)).

9- للمزيد من التفاصيل ينظر : (ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ) ، المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، (دار المعارف : القاهرة ، د.ت) 109/1 وما بعدها ؛ القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت821هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الانشأ ، تحقيق : عبد القادر زكار ، (وزارة الثقافة : دمشق ، 1981) 369/1 وما بعدها ؛ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 1903) ص240 وما بعدها).

10- القوم أصلهم ، ويقال جذام حي من اليمن ، وهم من بني أسد بن خزيمة ، وفي رواية ان جذام قبيلتان من اليمن ، نزلتا الشام وجذام هو الصدف ، والصحيح ان جذام المشهورة التي نفرت بلخم ، قبيلة بعيدة عن الصدف. (الفراهيدي : الخليل بن احمد (ت175هـ) ، العين ، تحقيق : مهدي المخزومي ، ابراهيم السامرائي ، (دار ومكتبة الهلال : بغداد ، د.ت) 97/6 ؛ السمعاني : أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ) ، الأنساب ، تقديم وتعليق : عبد الله عمر الباروري ، (دار الجنان : بيروت ، 1988) 33/2).

11- للمزيد من التفاصيل ينظر : (الازرق ، أخبار مكة ، 142/1 وما بعدها ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، 275/1 وما بعدها ؛ السويدي : أبي الفوز محمد أمين البغدادي ، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، ص107 وما بعدها).

12- سوق قريب من عكاظ ، ويقوم سوقها من هلال ذي الحجة إلى يوم التروية ، فيسيرون إلى منى ، وكانت هذه السوق من أسواق مكة في الجاهلي. (الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت727هـ) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه : إحسان عباس (ط2 ، مطابع هيد لبرغ : بيروت ، 1984) ص411).

13- قرية كالمدينة جامعة لها مزارع ونخيل ، ومياه كثيرة ولها سوق في يوم الجمعة يقصده الناس بأنواع التجارات ، وينزله قريش وهوازن وغطفان واسلم والاحابيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب (الحميري : م.ن ، ص411).

14- للمزيد من التفاصيل ينظر : (ابن قتيبة ، المعارف ، 75/1 وما بعدها ؛ اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح (ت284هـ) ، تاريخ اليعقوبي ، (دار صادر : بيروت ، د.ت) 256/1 وما بعدها ؛ ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت321هـ) ، الاشتقاق ، تحقيق وشرح : عبد

السلام محمد هارون ، (ط2 ، مكتبة المثنى : بغداد ، 1979) 180/1 وما بعدها ؛ القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص333 وما بعدها).

- 15- اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 270/1 ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، 115/1.
- 16- أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت356هـ) ، ذيل الأمالي والنوادر ، (دار الآفاق الجديدة : بيروت ، د.ت) ص199.
- 17- ياسين ، نجمان ، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين ، (دار الشؤون الثقافية : بغداد ، 1991) ص72.
- 18- الجاحظ : أبي عثمان عمرو بن بحر محبوب (ت255هـ) ، رسائل الجاحظ ، قدم لها وبوبها وشرحها : علي أبو ملح ، (ط3 ، دار ومكتبة الهلال : بيروت ، 1995) ص110-111.
- 19- كستر ، م.ج ، الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة : يحيى الجبوري ، (دار الحرية للطباعة : بغداد ، 1976) ص51.
- 20- الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ص413-415 ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 271/1.
- 21- ابن دريد ، الاشتقاق ، ص380 ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، 393/1-394 ؛ نهاية الأرب ، ص47 وما بعدها.
- 22- وقيل كل يوم من أيام الحر بشهر ، وكل يوم من سائر الأيام بعشر . (الفاكهي ، أخبار مكة ، 311/2 ؛ ابن الفقيه : أبي بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت290هـ) ، مختصر كتاب البلدان ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، 1988) ص20 ؛ المقدسي : محمد بن أحمد (ت390هـ) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، (وزارة الثقافة والارشاد القومي : دمشق ، 1980) ص105.
- 23- وتذكر المصادر التاريخية في هذا الصدد : ان مياه مكة زعاق لا تسوخ لشارب ، وأطيبها ماء بئر زمزم ، وماءه شروب غير انه لا يمكن إدمان شربه ، ويبدو ان طبيعة أرض مكة ساعدت على استمرار هذه المشكلة حتى زمن الإسلام ، فنلاحظ ان سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسري ، ان أجري لي عيناً يخرج من مائها العذب الزلال ، فحفر عين يقال لها عين السروري ، أو القسري بأصل ثبير ، وعملها بحجارة منقوشة ، وأحكمها ، ويذكر في روايات أخرى ان أول من احدث البرك ، والعيون في مكة ، زبيدة ثم بعدها المأمون عمل البرك الصغار ، أو كان ظهور البرك زمن خلافة الرشيد على يد أم جعفر بنت المنصور ، حينما أمرت بحفر بئر في موضع يقال له المشاش ، في قنوات رصاص ، فعرفت ببركة أم جعفر ، وتظهر مشكلة الماء في مواسم الحج ، حيث ترتفع أسعار الراوية التي يشتريها الحجاج في المواسم ، وتصل إلى عشرين درهماً أو أكثر ، وفي سائر السنة نصف دينار ، وثلاث دينار ونحو ذلك. (الفاكهي ، أخبار مكة ، 149/3 ؛ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص20 ؛ الادريسي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي (ت560هـ) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، (عالم الكتب : بيروت ، 1989) 140/1).

24- وحتى هذه الآبار كان فيه نسبة من الملوحة فلم تعالج المشكلة بصورة نهائية (الازرقى ، أخبار مكة ، 83/1 ؛ الفاكهي ، أخبار مكة ، 232/3 ؛ البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ) ، فتوح البلدان ، تحقيق : رضوان محمد رضوان ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 1403) ص60 ؛ اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت284هـ) ، كتاب البلدان ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، 1988) ص79).

25- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص60.

26- ويقال قحف المطر قحفاً ، أي اشتد فجأة فذهب بما مر به ، وسيل قحاف أي جراف يذهب بكل شيء ، ويسمى المطر والعُهد المطرة بعد المطرة يدرك آخره بلل ، أوله وقيل هي المطرة تكون أولاً لما يأتي بعدها ، وجمعها عاهد وعهود ، ويقال مطر العهود احسن ما يكون لقلة غبار الآفاق ، والعهاد امطار الربيع بعد الوسمي (ابن سيدة : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت485هـ) ، المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 2000) 121/1 ؛ الزبيدي ، تاج العروس ، 457/8 ؛ مصطفى ، إبراهيم وآخرين ، المعجم الوسيط ، تحقيق : مجمع اللغة العربية ، (دار الدعوة : لا.م ، د.ت) 716/2).

27- الازرقى ، أخبار مكة ، 159/2 ؛ السهيلي : أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن (ت581هـ) ، الروض الاتف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، علق عليه ووضع حواشيه : مجدي بن منصور بن سيد الشورى ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، د.ت) 217/1.

28- ويذكر ان رسول الله (ﷺ) ، أصابه في صغره رمد شديد فعولج بمكة ، فلم يغن عنه ، فقل لجدده عبد المطلب ان في ناحية عكاظ كاهناً يعالج الأعين فركب إليه عبد المطلب فناداه ودير الراهب مغلق عليه لايجيبه ، فتزلزل به ديره حتى خاف ان يسقط عليه ، فخرج مبادراً فقال يا عبد المطلب ان هذا الغلام ، نبي هذه الأمة ، ولو لم أخرج اليك لخر ديري فارجع به حتى لا يغتاله أهل الكتاب ، وهناك امراض أخرى أصيب بها أهل مكة غير العمى ، مثل البرص فيقال ان أول من برص بمكة أبو عز الجمحي واسمه عمرو بن عبد الله ، فكانت قریش لا تؤاكله ولا تجالسه ، وأبصر الجدري والحصبة بمكة زمن الفيل ، وقبل ذلك لم يعرف فيها (الازرقى ، أخبار مكة ، 126/1 ؛ الفاكهي ، أخبار مكة ، 103/3-218 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، 589/1 ؛ ابن رسته : أبي علي أحمد بن عمر (ت290هـ) ، الاعلاق النفيسة ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، 1988) ص201 ؛ العصامي : عبد الملك حسين بن عبد الملك الشافعي (ت1111هـ) ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تحقيق : عادل عبد الموجود ، علي محمد معوض ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 1998) 316/1).

29- الفاكهي ، أخبار مكة ، 218/3 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، 589/1.

30- وتسمى جعجاج فهي مناخ السوء من جذب وغيره ، وقحوط المطر ان يُحتبس وهو محتاج إليه ويقال زمان قاحط وعام قاحط ، ويشق لكل ما قل خيره ، والأصل للمطر ، ويقال هلكت المواشي ، واجدبت

البلاد أي قحطت وغلت الأسعار ، ويبدو ان هناك عادات وتقاليد عند العرب يلجئون إليه لإنزال المطر في هكذا حالات ، وهي إيقاد نار الاستمطار ، فإذا ما تتابعت عليهم الأزمان ، وركد فيهم البلاد واشتد الجذب ، واحتاجوا إلى الاستمطار استجمعوا ما قدروا عليه من البقر وعقدوا في آذانها بين عراقيبها السلع ثم صعدوا بها إلى جبل ، وأوقدوا النار ، وكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا ، لكن هذا لا ينجح في كل الحالات (الفراهيدي ، العين ، 39/3 ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، 570/1 ؛ ابن سيده ، المحكم ، 121-62/1 ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 254/1 ؛ الفلقشندي ، صبح الاعشى ، 466/1 ؛ الزبيدي ، تاج العروس ، 457/8) (مادة قحف)).

31- اعجفه أي هزله ، والتعجف الجهد وشدة الحال ، وسموا الأرض المجذبة عجافا (ابن منظور ، لسان العرب ، 234/9) (مادة عجف)).

32- للبقر والشاة والظبي كالحافر لغيرها ، والظلف والظليف كل مكان خشن ، ويقال أرض ظلقة غليظة لا يرى أثر من مشى فيها ، ومنه أخذ الظلف في المعيشة (ابن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، 467/3 ؛ الرازي ، مختار الصحاح ، 170/1) (مادة ظلف)).

33- كل شيء خف محمله ، والخفة خفة الوزن ، وأخف فلان إذا خفت حاله أي رقت ، والخفوف سرعة السير من المحلة ، وخف القوم إذا ارتحلوا مسرعين (الفراهيدي ، العين ، 144/4) (مادة خف)).

34- الشين والفاء أصل واحد يدل على رقة وقلة ، لا يشذ منه شيء ، والشف النقصان كأنه ينقص الشيء حتى يصيره شفافه ، والشفوف تحول الجسم ، يقال شفه المرض شفا ، والاستشفاف في الشراب ان يستقصي ما في الأثناء ، لا يسئر فيه شيئا ((ابن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، 467/3 ؛ الرازي ، مختار الصحاح ، 170-169/3) (مادة شف)).

35- ابن سعد : محمد بن منيع الزهري (ت230هـ) ، الطبقات الكبرى ، أعد فهارسها : رياض عبد الله عبد الهادي ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، د.ت) 41/1 ؛ العصامي ، سمط النجوم ، 316/1.

36- سورة قريش ، الآية 4 .

37- ابن حيان الأندلسي : أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (ت469هـ) ، تفسير البحر المحيط ، حقق أصوله وعلق عليه وخرج أحاديثه : عبد الرزاق المهدي ، (دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 2002) 736/8 ؛ الفخر الرازي (ت545هـ) ، التفسير الكبير ، طبعة جديدة مصححة ملونة إعداد : مكتب تحقيق ، (ط4 ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 2001) 654/32 ؛ الألوسي : أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت127هـ) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تحقيق : محمد أحمد الامد ، وعمر عبد السلام إسلامي ، (دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 1999) 654/30.

38- حاس حيساً الشيء خلطه ، حيس الحيس ، اتخذته والحيس طعام مركب من تمر وسمن وسويق ، (معلوف ، لويس ، المنجد في اللغة ، (ط4 ، غدير : لا.م ، 1996) ص164) (مادة حيس)).

- 39- تتطع فلان جعل الطعام في نطعه ، وفي الشيء غالي ، وتكلف فيه ، يقال تتطع فلان في كلامه تنصح فيه وتعمق ، والنطع بساط من الجلد كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه ، ومن مجاز المجاز تتطلع الصانع تحذلق في صناعته (الزمخشري ، أساس البلاغة ، 639/1؛ مصطفى ، إبراهيم وآخرين ، المعجم الوسيط ، 930/2 (مادة نطع)) .
- 40- لباب القمح بلعاب النحل ، واللباب الخالص من كل شيء ، ولي كل شيء نفسه ، وحقيقته (الزبيدي ، تاج العروس ، 196/4 (مادة لب)) .
- 41- الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ص103.
- 42- الرصد بالكسر العطاء والصلة ، وترافدوا أعان بعضهم بعضاً ، والاسترفاد التعاون يقال استرفدته فأرفدني ، والمرافدة المعاونة ، ومن المجاز رقدوا فلاناً ورقلوه ، والترفيد والترفيل (التسويد والتعظيم) ، ورقدوه ملكوه أمرهم (ابن منظور ، لسان العرب ، 181/3 ؛ الزبيدي ، تاج العروس ، 109/6) مادة رقد)) .
- 43- ومما تجدر الإشارة إليه ان هذه الوظيفة ظلت محافظة على ديمومتها حتى مع ظهور الرسالة المحمدية ، ونهى الرسول (ﷺ) ، للكثير من عادات وتقاليده العرب في الجاهلية ، لكنه أقر وظيفة الرفادة وحرص على استمرارها ، فلم يزل هاشم على ذلك حتى توفي ، وكان عبد المطلب يفعل ذلك ، فلما توفي عبد المطلب قام بذلك أبو طالب ، ثم ولية العباس ، ثم أقر الرسول (ﷺ) وعمل به في حجة الوداع ، ثم جرى في عهد الخلفاء الأربعة ، حتى الآن فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج (ابن هشام ، السيرة النبوية ، 166-71/1 ؛ الازرقى ، أخبار مكة ، 82/1 ؛ الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ص103 ؛ المقدسي ، البدء والتاريخ ، 129/4).
- 44- المقدسي ، البدء والتاريخ ، 11/4 ؛ السهيلي ، الروض الانف ، 249/1.
- 45- ابن دريد ، الاشتقاق ، 25/1.
- 46- الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ص410-411 ؛ المقدسي ، البدء والتاريخ ، 129/4.
- 47- ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، (دار صادر : بيروت ، د.ت) ، ص242.
- 48- اعتقد يعتقد والاعتقاد ان يغلق الرجل بابه على نفسه وأهله ، فلا يسألون أحداً ، حتى يموتوا ، وكانوا يفعلون ذلك في الجذب ، إذا اشتد بهم الجوع وخافوا ان يموتوا ، فلا يسألون احد ، وهذا يوحي لنا العفة والرتفع عن السؤال ، وهو ما درج عليه فقراء مكة ، ونستطيع ان نقول ان الاعتقاد مقرون بالمستوى المعاشي للفرد ، أي الفقر والعوز ، ولا يوجد صلة بخسارة التاجر لأمواله ، وشروعه بالاعتقاد لإخفاء خسارته ، فهذا بعيد عن المعنى الحقيقي له ، وهذا ما تؤكد المصادر التاريخية واللغوية ، بعكس آراء التي تربطه بالتجارة (الزمخشري ، أساس البلاغة ، 427/1 ؛ ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ) ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (دار صادر : بيروت ، 1358) 211/1 ؛ الزبيدي ، تاج العروس ، 393-394 (مادة عقد)).

- 49- الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، 297/3 ؛ القرطبي : أبو عبد الله محمد بن الانصاري (ت 671هـ) ، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، (دار الشعب : القاهرة ، د.ت) 204/20 ؛ الافغاني ، سعيد ، أسواق العرب ، ص150.
- 50- الشريف ، أحمد إبراهيم ، الدولة الإسلامية الأولى ، (لا.ط : القاهرة ، 1965) ، ص1 ؛ ياسين ، نجمان ، تطور الأوضاع ، ص71.
- 51- الشريف ، أحمد ، الدولة الإسلامية ، ص1-2.
- 52- علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (دار العلم للملايين : بيروت ، 1976) 285/7.
- 53- الشريف ، أحمد ، الدولة الإسلامية ، ص1-2.
- 54- ضرب من العنب ويقال قضيب من الكرم ، والجفنة معروفة أعظم ما يكون من القصاع ، والجمع جفان ، ويقال جفن الجزور أي اتخذ منها طعاماً ، وقيل معنى جفنها ينحرفها وطبخها واتخذ منها طعاماً ، وجعل لحمها في الجفان ، ودعى إليها الناس حتى أكلوها ، وقيل جفنة قبيلة من اليمن ملوك في الشام (الفرهيدي ، العين ، 146/6 ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 89/13-90 (مادة جفن)).
- 55- الصاد والحاء والفاء أصل صحيح يدل على انبساط في شيء وسعة ، ويقال إن الصحف وجه الأرض ، والصحف والصحفة القصعة المسنطحة ، ويقال الصحف مناق صغار تتخذ للماء والجمع صحاف (ابن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، 334/3 ؛ الزمخشري ، أساس البلاغة ، 349/1) مادة ((صحف)).
- 56- بفتحيتين جمع أديم وقد يجمع على ادمة كزغيف أو أرغفة ، وربما سمي وجه الأرض أديماً والادمة باطن الجلد ، والادم من الإبل الشديد البياض ، والادم ما يؤتمد به تقول منه أدم الخبز باللحم (الرازي ، مختار الصحاح ، 4/1 (مادة أدم)).
- 57- أطرف الرجل أعطاه ما لم يعطه احد قبله ، واطرفت فلاناً شيئاً أي أعطيته شيئاً لم يملك مثله فأعجبه ، والمطارف أردية من خز مربعة لها أعلام ، والطرف الناحية والطائفة من الشيء ، وفلان كريم الطرفين يراد به نسب أبيه وأمه (ابن منظور ، لسان العرب ، 214/9 ؛ الرازي ، مختار الصحاح ، 146/1 (مادة طرف)).
- 58- البيهقي ، تاريخ البيهقي ، 242/1 ؛ القالي ، ذيل الامالي ، ص99 ؛ السهيلي ، الروض الانف ، 250/1.
- 59- الهمزة واللام والفاء أصل واحد يدل على انضمام الشيء إلى الشيء ، والأشياء الكثيرة ، وكل شيء ضمنت بعضه إلى بعض فقد ألفتها تأليفاً (ابن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، 131/1 (مادة الف)).
- 60- الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ص413 ؛ اللوسي ، تفسير روح المعاني ، 650/30.
- 61- الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، 297/32 ؛ القرطبي ، الجماع لأحكام القرآن ، 205/20 ؛ الديار

- بكري : حسين بن محمد بن الحسين (ت966هـ) ، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، (مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع : بيروت ، د.ت) 156/1 ؛ الافغاني ، سعيد ، أسواق العرب ، 150.
- 62- الازرقى ، اخبار مكة ، ص83 ؛ السهيلي ، الروض الانف ، 1/249 ؛ الديار بكري ، تاريخ الخميس ، ص156.
- 63- الاحمد ، سامي سعيد ، حضارات الوطن العربي القديمة أساساً للحضارة اليونانية ، (بيت الحكمة : بغداد ، 2003) ص78.
- 64- وبصورة مغايرة لهذه المجتمعات ، اوجد الإسلام تجربة رائدة برزت صورة مضيئة في إطار الاهتمام بالفوارق الطبقيّة ، ورفع المعاناة عن كاهل المحتاجين ، وإرساء المودة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد ودونما تفاضل إلا بالتقوى ، وهو إقرار مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار (ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، 1/115 ؛ الجاحظ : أبو عمر عثمان بن بحر (ت255هـ) ، التاج في أخلاق الملوك ، (فردوين : إيران ، 1370) ص23).

قائمة المراجع :

- القرآن الكريم .
- الادريسي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي (ت560هـ)
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، (عالم الكتب : بيروت ، 1989).
- الازرقى : أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت250هـ)
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق : علي عمر ، (مكتبة الثقافة الدينية : القاهرة ، 2004) .
- الالوسي : أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت127هـ)
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تحقيق : محمد أحمد الامد ، وعمر عبد السلام إسلامي ، (دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 1999).
- البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ)
- فتوح البلدان ، تحقيق : رضوان محمد رضوان ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 1403) .

- الثعالبي : أبي منصور عبد الملك بن إسماعيل (ت429هـ)**
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، (دار المعارف : القاهرة ، د.ت).
- الجاحظ : أبو عمر عثمان بن بحر (ت255هـ)**
- التاج في أخلاق الملوك ، (فردوين : إيران ، 1370).
 - رسائل الجاحظ ، قدم لها وبوبها وشرحها : علي أبو ملحم ، (ط3 ، دار ومكتبة الهلال : بيروت ، 1995).
- ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ)**
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (دار صادر : بيروت ، 1358).
- الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت727هـ)**
- الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه : إحسان عباس (ط2 ، مطابع هيدلبرغ : بيروت ، 1984).
- ابن حيان الأندلسي : أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (ت469هـ)**
- تفسير البحر المحيط ، حقق أصوله وعلق عليه وخرج أحاديثه : عبد الرزاق المهدي ، (دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 2002).
- ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت321هـ)**
- الاشتقاق ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، (ط2 ، مكتبة المثنى : بغداد ، 1979).
- الديار بكري : حسين بن محمد بن الحسين (ت966هـ)**
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، (مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع : بيروت ، د.ت).
 - ديوان حسان بن ثابت الانتصاري ، (دار صادر : بيروت ، د.ت).
- الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت721هـ)**
- مختار الصحاح ، (مكتبة لبنان ناشرون : بيروت ، 1995).
- ابن رسته : أبي علي أحمد بن عمر (ت290هـ)**
- الاعلاق النفيسة ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، 1988).
- الزبيدي : أبو الفيض محمد بن محمد مرتضى (ت1205هـ)**
- تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، (دار الهداية : لام ، د.ت).
- ابن زكريا : جمال الدين أحمد بن فارس (ت395هـ)**
- معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، (دار الجيل : بيروت ، 1999).
- الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت538هـ)**
- أساس البلاغة ، (دار الفكر : لام ، 1979).
- ابن سعد : محمد بن منيع الزهري (ت230هـ)**
- الطبقات الكبرى ، أعد فهرسها : رياض عبد الله عبد الهادي ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ،

د.ت).

السمعاني : أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ)

- الأنساب ، تقديم وتعليق : عبد الله عمر الباروري ، (دار الجنان : بيروت ، 1988).

السهيلي : أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن (ت581هـ)

- الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، علق عليه ووضع حواشيه : مجدي بن منصور بن سيد الشورى ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، د.ت).

ابن سيدة : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت485هـ)

- المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هندائي ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 2000) .

العصامي : عبد الملك حسين بن عبد الملك الشافعي (ت1111هـ)

- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، تحقيق : عادل عبد الموجود ، علي محمد معوض ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 1998).

الفاكهي : محمد بن أسحاق بن العباس (ت275هـ)

- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، تحقيق : عبد الملك عبد الله دهيش ، (ط2 ، دار خضر : بيروت ، 1414هـ).

الفخر الرازي (ت545هـ)

- التفسير الكبير ، طبعة جديدة مصححة ملونة إعداد : مكتب تحقيق ، (ط4 ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 2001) .

الفراهيدي : الخليل بن أحمد (ت175هـ)

- العين ، تحقيق : مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، (دار ومكتبة الهلال : بغداد ، د.ت).

ابن الفقيه : أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت290هـ)

- مختصر كتاب البلدان ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، 1988) .

القالبي : أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت356هـ)

- ذيل الأمالي والنوادر ، (دار الآفاق الجديدة : بيروت ، د.ت).

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ)

- المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، (دار المعارف : القاهرة ، د.ت) .

القرطبي : أبو عبد الله محمد بن الانصاري (ت671هـ)

- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، (دار الشعب : القاهرة ، د.ت).

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت821هـ)

- صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، تحقيق : عبد القادر زكار ، (وزارة الثقافة : دمشق ، 1981).

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، (دار الكتب العلمية : بيروت ، 1903).
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق وتعليق : سعيد محمد اللحام ، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 2000).
- المقدسي : محمد بن أحمد (ت390هـ)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، (وزارة الثقافة والارشاد القومي : دمشق ، 1980) ص105.
- المقدسي : مطهر بن طاهر (ت355هـ)
- البدء والتاريخ ، (دار صادر : بيروت ، 1903) .
- ابن منظور : جمال الدين بن محمد بن مكرم الانصاري (ت711هـ)
- لسان العرب ، (دار صادر : بيروت ، د.ت).
- ابن هشام : محمد بن عبد الملك (ت218هـ)
- السيرة النبوية ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها : مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، د.ت).
- اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح (ت284هـ)
- تاريخ اليعقوبي ، (دار صادر : بيروت ، د.ت).
- كتاب البلدان ، (دار إحياء التراث العربي : بيروت ، 1988).

قائمة المصادر :

الأحمد ، سامي سعيد

- حضارات الوطن العربي القديمة أساساً للحضارة اليونانية ، (بيت الحكمة : بغداد ، 2003) .

الافغاني ، سعيد

- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، (دار الآفاق العربية : لام ، 1993).

السويدي : أبي الفوز محمد أمين البغدادي

- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، (دار الكتب العلمية : بيروت)

الشريف ، أحمد إبراهيم

- الدولة الإسلامية الأولى ، (لاط : القاهرة ، 1965) .

علي ، جواد

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (دار العلم للملايين : بيروت ، 1976).

كحالة ، محمد

- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، (ط8 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ، 1997)

كستر ، م.ج

- الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة : يحيى الجبوري ، (دار الحرية للطباعة : بغداد ، 1976).

مصطفى ، إبراهيم وآخرين

- المعجم الوسيط ، تحقيق : مجمع اللغة العربية ، (دار الدعوة : لام ، د.ت) .

معلوف ، لويس

- المنجد في اللغة ، (ط4 ، غدير : لام ، 1996).

وينهايم ، لينو

- بلاد ما بين النهرين ، ترجمة : سعدي قيصي عبد الرزاق ، (دار الحرية للطباعة : بغداد ، 1981) .

ياسين ، نجمان

- تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين ، (دار الشؤون الثقافية : بغداد ، 1991).